الحب.. المبرر الجاهز لكل شيء

ما تكاد تمس بأصابعك قنوات التلفزيون، وما تكاد تمر بأناملك على محطات الراديو حتى ينهمر على أذنيك سيل من أغاني الحب والغرام والوجد والهيام بجميع ما يخطر على بالك من لغات.. تأوهات فرنسية، وأخرى روسية، وثالثة تركية ورابعة عربية، وخامسة إيطالية، وسادسة ألمانية إلى آخر ما فى المعجم من لغات.

ويكاد العصر يبدو وكأنه عصر الحب.. فالصفة المشتركة لكل وسائل الإعلام هى التسبيح والتقديس والترويج والتغنى بهذا الحب، ورفعه إلى مصاف المعبودات، ورفع جسم الأنثى إلى مرتبة الأصنام التى يحرق لها بخور الشعراء وعطور المغنين وابتهالات الملحنين.. ولا مانع من الاستفادة بجسم الأنثى العارى فى الإعلانات لترويج الصابون وشفرات الحلاقة والمشروبات الغازية وأنواع البسكوت والشبس والبنبون، فهذا ولا شك سوف يضفى الحيوية على الشبس والبسكوت والبنبون من باب الشيء بالشيء يُذْكَر.

والعقيدة التى تسقيها السينما والتلفزيون والأغانى لكل شاب

ليل نهار هى.. افعل أى شىء وقل أنا أحبها.. افعلى أى شىء وقولى.، أحبه.. فهذا سوف يضفى القداسة والطهارة على أى فعل، فالحب هو القيمة العليا التى يضحى فى سبيلها بكل شىء والهدف الأسمى الذى من أجله نعيش.. والأبطال الحقيقيون فى نظر الإعلام هم قيس وليلى وروميو وجولييت.

والشعراء غرقى فى بحر الحب..
والفن مستنقع حب..

حتى ليخيل للمشاهد والقارئ أن الفنانين كلهم لا يأكلون إلا الحب، ولا يشربون إلا الحب، ولا يتنفسون إلا الحب.

والعقول سكرى على هذه الكلمات الضبابية التى تتبخر كالكحول..
والأغانى تتطاير كالعطور، والبالونات الملونة..

محفل عظيم وكرنفال وسامر ومولد وسوبر ماركت اسمه الحب.. مفتوح بطول الدنيا وعرضها.

والشعراء ينصبون الزينات وينادون على البضاعة

فالعيون مثل بحيرة من عسل النحل، بل مثل منجم فيروز.. بل هى واحة من السكينة والأمن.. بل هى الحضن لليتيم والراحة للمسافر حيث يريح رأسه على شاطئ المرمر والبلّور المذاب، ويغفو كطفل ويبحر فى محيط اللانهاية.. إلخ.. إلخ.

ولا ينتهى فى الحب كلام، ولا تخلو حياة الشباب من لحظات محمومة يصدقون فيها أى شىء.

وما أكثر الأكاذيب الجميلة!

ولكن على الجانب الآخر الواقعى من العالم تعلو أصوات الكراهية، ويسود الإرهاب، وتنفجر السيارات الملغومة، ويموت الأطفال، وتغتصب الشعوب، وتتكدس الأسلحة، وتهرب أطنان المخدرات، وتخطف الطائرات.

وشعراء الحب لا يأكلون الحب ولا يشربون الحب وإنما يتعيشون من الحرفة، ويتكسبون من الصناعة، ويتقاضون أجورًا على دورهم من المنتج والناشر والجمهور،والاعتبار الأول عندهم للمصالح وللمكانة وللجاه عند الناس،وهم أقل الناس انخداعًا بالحب فى حياتهم الخاصة.

والمرأة برغم ما تبدى من عواطف فإنها لحظة الزواج تطرح جميع عواطفها خلفها وتبحث بعقلها فتسأل عن الدخل والثروة، وتنظر بمنظار المصلحة والراحة المادية والراحة فى العِشْرة.. وهى قد تستدرج الرجل بالعواطف وبكلمات الحب المعسولة حتى يعمى عن عيوبها وسلبياتها، ولكنها لا تسمح لنفسها أبدًا بأن تستدرج من عواطفها.

والمرأة واقعية بعكس ما يشاع عنها من عاطفية.. وهى التى أشاعت عن نفسها هذه العاطفية للتعمية والتضليل.

أما الرجل فهو «المدب» الكبير، وهو الطرف الخيالى والحالم والمثالى.. وما أسهل ما تثير المرأة عواطفه وتستدرجه إلى مهلكه.

والحب ليس قوة يفتخر بها صاحبها.. بل هو ضعف أولى به الستر.

والحب لا يصلح كدليل لانتقاء شريكة العمر، فالحب تشعله النظرة واللفتة، وتحركه الشهوة، والقلب يأسره المنظر، ويستعبده المظهر، فيعميه عن سوء المخبر وخبث الجوهر.. وللجمال سلطان غلاب، وللهوى سُعار يشوش على العقل ويسد مسالك التفكير فلا يعود الشاب يرى إلا ما يأمره شيطان هواه بأن يراه.

وذلك هو الحب الذى يجعل صاحبه عبدًا.

وزواج حافزه هذا الحب لن يتجاوز عمره شهر العسل، فما تكاد الرغبة تشبع حتى يصحو العقل على سوء الاختيار واستحالة العشرة، وما يلبث الحب أن يفتر، ثم ينكر كل طرف ما يراه من فتور الطرف الآخر، فينقلب التفاهم إلى تشاحن، والانسجام إلى شجار، وتظهر العيوب، وتتسع الفجوة، ثم ينقلب الحب كراهية والصداقة عداوة والجنة جحيمًا، ثم يتحول ما تبقى من العمر إلى محاولات فض اشتباك.

والقلب متقلب (وهكذا اسمه) ولهذا لا يؤتمن ولا يعتمد عليه فى انتقاء شريكة العمر.. وجمال الوجه لا يدوم، ومقاسات الجسم ما أسرع ما تتغير بعد السنة الأولى من الزواج، فتتحول الغزالة

إلى بقرة، ونجمة الشاشة إلى مرضعة قلاوون.

ولفظ «الحب» جاء فى القرآن فى موضع الذم فى سورة يوسف الآية ٣٠:

﴿وقَالَ نِسْوَةٌ فى المدِينة امرأةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فتاها عن نفْسِهِ قد شَغَفَهَا حُبًّا إنَّا لَنَرَاهَا فى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

فهو عند الله ضلال.

بل إن يوسف ليقول إن السجن أحب إليه من ذلك الذى يدعونه إليه:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف – ٣٣).

ثم هو يسميه كيدًا:

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ (يوسف – ٣٣).

فكلام العشق كيد من كيد النساء.. والصبابة جاهلية..

ذلك هدى الأنبياء..

ولكن التلفزيون والسينما والإذاعة والأغانى والمجلات تقول لنا كلامًا آخر، والشباب معذور، فهو يرى البوصلة وعلامات الطريق تقوده إلى سبل أخرى، وهو يرى نجومًا يحبهم ويحترمهم يتكلمون لغة أخرى.

ولا أدرى لماذا لا يخرج المؤلفون من هذه الزنزانة الفكرية المحدودة، ومن هذا السرير المتر ونصف ليحلقوا بالحب فى موضوعات أشمل وأكبر وأعمق؟

لماذا لا يتخذون من الكون كله موضوعًا لتأملهم؟ ومن العلم هدفًا لحبهم؟

إن أدب العلم ومسلسلات العلم تملأ تليفزيونات أوربا وأمريكا، والسرد الروائى الجميل للتاريخ وأحداث الحروب نشاهدها ونستفيد منها فى نادى السينما.. وفى التلفزيون الإنجليزى يتخذون من حياة العلماء والمفكرين والمخترعين مادة لمسلسلاتهم، ونحن مازلنا نبحث فى تاريخ بمبة كشر وزوبة الكلوباتية وشفيقة القبطية وبديعة مصابنى عن قصص الغرام والهيام وليالى الصبابة.

إلى متى نعذب المشاهدين بهذا الإملال المستمر بحكاية واحدة مكررة ومعادة، ولا نكتفى بذلك، بل نعاود إذاعة وعرض أفلامنا القديمة بكل سذاجتها وكأنها كنوز وتراث ومعجزات أدبية؟!

وهل الحب بحاجة إلى كل تلك الدعاية والبروباجندا والسامر والمحفل المعقود ليل نهار.. وهل شهواتنا بحاجة إلى كل طبول الشعراء لتستحثها وتساعدها؟

إن الحب يا سادة غريزة مغروسة فينا ولها من قوتها الذاتية ما يكفيها لبلوغ مرادها.. وعمار الأرض مضمون بما لهذه الغريزة من

قوة دافعة إلى طلب التناسل والتكاثر.. وهى ليست فى حاجة إلى مساعدة الشعراء والمطربين.

وبيوت اللهو ليست فى حاجة إلى أفيشات وإلى دعاية من أقلام الفنانين، فالأقدام تسعى إليها وتعرف مكانها جيدًا، وهى ستظل رائجة بإذن الله إلى أن تقوم الساعة، ولا خوف على سوقها، وإنما المطلوب بشدة هو دعاية أخرى مضادة لإيقاظ العقل الغافل، وتحريك الضمير النائم، وبعث القيم المطمورة تحت الركام.

والفن الحقيقى هو تلك الدعوة التى تحرك الضمير، وتوقظ العقل، وتحفز القيم لتعاود نشاطها وفعلها وتأثيرها فى الحياة.

والإعلام المطلوب هو الإعلام الذى يفتح قنواته لهذا الفن الراقى.

والشعر الحق هو الشعر الذى يتغنى بهذا النوع الآخر من الحب.. حب الخير والعدل والحق والفضيلة.

ولا أفهم أن تتبنى أجهزة الدولة الرسمية تلك الهلاوس العاطفية، فهى كفيلة بالترويج لنفسها بنفسها، ولا تحتاج إلى جهاز لترويجها.. وإنما واجب الدولة الأول أن تتبنى وتشجع وتروج الفنون الإيجابية الجادة التى تبنى المجتمع وترسخ قيمه.

ولا خوف على زبون اللهو، فهو لن يضل طريقه إلى اللهو أبدًا، وهو يعرف دائمًا أين يجده.

وإنما الخوف أن يصبح اللهو مقررًا فى أجهزة الإعلام فى حصص يومية يتجرعها الكل بانتظام وكأنها وجبات ثقافية.

وتلك الهلاوس العاطفية ليست ترفُيهًا ولا تسلية، فقد جاوزت الترفيه والتسلية إلى الإثارة والمراودة والدغدغة الحسية.. والانحدار الفنى الذى شمل العالم كله لم يدع شيئًا، حتى فن الباليه الذى كان فنًا رفيعًا تحول هو الآخر فى الباليه المودرن إلى شقلبات وإيماءات جنسية فاضحة.

وما نراه فى ملاهى أوربا وأمريكا ليس بالشىء الذى يُقْتَدَى به.. والأولى أن نقلد هؤلاء الناس فى علومهم ومخترعاتهم وصناعاتهم، ونأخذ عنهم تكنولوچيا الفضاء والليزر والذرة وعلوم الهندسة الوراثية، وليس تأوهات مايكل جاكسون وتشنجات الديسكو.

وما أطلبه صعب، فالجمهور تعود على استحلاب بونبون الحب ليل نهار، والبضاعة الحاضرة معظمها من هذا الصنف الهابط.. وأنا لا أقول: نصدم الناس فى مألوفاتهم.. وإنما أقول نخرجهم من هذه المألوفات بالتدريج وعلى مهل.. ونقلل من الهلوسة بعض الشىء وخطوة خطوة.. ونشجع المحاولات الجادة، ونقدم النماذج الرفيعة، ونأخذ الناس من أيديهم برفق نحو فنون أجمل وأرفع.

ولا يهم أن يطول الإصلاح إلى سنين.
ولكن المهم أن نبدأ ومِنَ الآن.